الرسـالة الثالثـة

لقد التحقت ببرنامج إعداد المعلم

حين لم أجد خيارات أخرى

obeikandl.com

obeikandl.com

منذ سنوات قليلة ، عندما دعيت إلى الحديث مع المشاركين فى إحـدى بـرامج إعداد المعلم فى مدينة (سان باولو) ، استمعت من كثير منهم إلى تلك العبـارة الـتى اتخذت منها عنواناً لهذه الرسالة . كذلك استمعت من عدد منهم إلى أنهم قد اختـاورا هذه البرامج فى ترقب مجال أفضل، إلى حين تتهيأ لهم فرصة الزواج.

وإنى لعلى اقتناع تام بأن الممارسة التعليمية التى أتحدث عنها ، والتى أشرت إلى جمالها وأهميتها مراراً ينبغى ألا تعد على أساس مثل تلك الدوافع التى استمعت إليها . وربما كان ينظر برؤية غير مسئولة إلى بعض برامج إعداد المعلم على أنها ماكينة توضع فيها النقود ؛ طلباً للأغانى المتواضعة الشهيرة . كذلك .. فإن هذا لا يعنى أن تكون تلك البرامج غطاءَ قماش يتقى الناس به هطول المطر حتى تخف حدته . والواقع أن اتقاء زخة من الأمطار تحت أى غطاء لا يحتاج إلى إعداد وتدريب . وعلى العكس من ذلك تماما .. فإن الممارسة التعليمية أمر جد خطير، ونحن كمعلمين نتعامل مع بشر من الأطفال والمراهقين والكبار ومسئوليتنا أن نشارك فى نموهم ، وقد نتمكن من مساعدتهم فى ذلك أو قد نعيقه فى سعيهم للنمو . إننا مرتبطون بهم ارتباطاً أصيلاً فى عملية اكتشافهم للحياة . وقد يؤدى عدم الكفاءة وضعف الإعداد وعدم المسئولية فى ممارستنا التعليمية إلى إخفاقهم فى مواصلة النمو والاكتشاف . بيد أننا مع تحمل المسئولية والإعداد العلمى ومحبة عملية التدريس ، فضلاً عن الجدية وتقديم القدوة فى الكفاح من أجل العدالة ، سوف نسهم فى تشكيل المتعلمين تدريجيًّا حتى يصبحوا أشخاصاً ، لهم حضورهم فى هذا العالم .

وباختصار .. فإنه بصرف النظر عن تقريرنا بأن معلم الطلاب غـير الكـفء ، والذى لا يتحمل المسئولية سوف يكون بالضرورة غير لائق لممارسة عملية التعليم ، أو

بأن الكفء والقادر على تحمل المسئولية هو اللائق والجدير بهذه المهمة ، فإن واجبنـــا يفرض علينا أن نقبل على مهمتنا بكل اعتزاز وشرف ، آخذين التحضير لهـــا بكـــل اعتبارات وشروط الجدية والإحكام .ولعل من بين الأسباب التى تـــدعو الطـــلاب إلى اختيار برامج إعداد المعلم ، ذلك الاتجاه الذى يلتقى ويعزز تلك الأيديولوجية ، الـــتى تختزل وظيفة المعلم المحترف إلى دور الأمومة المدلِلَة .

ولذلك .. فإنه من الضرورى فى الحركة النضالية للمعلمين إدراكهم الذى يجـــب أن يؤكدوه فى ذواتهم ، كما نؤكده نحن جميعاً ، بما لمهمة التعليم من كرامة وأهميـــة . وإذا لم يتجسد ذلك الإدراك والاقتناع فسوف نجد أنفسنا فى نضالنا من أجل الأجـــور ومن أجل التقدير الاجتماعى فى حالة من الفشل والإخفاق . وبطبيعة الحال .. فـــإن إدراكنا لقيمة مهمتنا التعليمية لا يعنى أنها أهم مجالات العمل المجتمعى قاطبة ، ولكنـــه يعنى أنها مهمة جوهرية وأساسية ، لا يمكن الاستغناء عنها فى إطار المحيط الاجتماعى . ومن ثم فإنه ينبغى ألا يلتحق إنسان ببرامج إعداد المعلمين يفتقد فرصاً أخرى للعمل ، أو لأنه فى أدنى من ذلك يريد أن يمضى وقتاً ريثماً يحين وقت الزواج . ولما كانت تلك الدوافع شبيهة – كما ذكرنا – بشخص عابر ألجأه المطر للاحتماء فى مكان ما يغادره بمجرد توقف تلك العاصفة . ومن ثم فإن فى مثل معظم تلك الحالات لا يجد المرء سبباً أو دافعاً للنضال المهنى ، لهذا فلا مانع لديه من الالتزام بمقتضيات المهنة ، وعليه أن يقبل دور الأمومة المدَلِّلة .

وإذا أردنا أن نناضل بكفاءة من أجل حقوقنا ، فإننا فى حاجة لأن نشعر بالاقتدار والثقة بالأهمية السياسية والاجتماعية لما نقوم به من مهمات . والواقع أن ضآلة أجورنا لا تستند فى أسبابها على الأحوال الاقتصادية والمالية للدولـــة وللـــشركات الخاصـــة فحسب، لكنها مرتبطة كذلك بمفهوم استعمارى للإدارة ، وكيف يتم التعامـــل مـــع الإنفاق العام وترتيب أولويات هذا الإنفاق .

وعلينا أن نواجه تلك القضايا وأن نفند المقولات المغرضة من أمثال الزعم بأنه "يمكن رفع أجور المحامين المدافعين عن عمال النقابات ، حيث إن عددهم لا يتجاوز الستين . بيد أننا لا نستطيع أن نفعل مثل ذلك فى حالة المعلمين ، حيث إن هناك عشرين ألفا منهم" .

كلا ، لن نقبل بمثل هذه الرأى . وفى بداية مناقشته أود أن أعرف: هل للمعلمين أهمية أم لا ؟ وأود أن أعرف هل تعتبر أجورهم غير كافية ؟ وهل المهمات التى يقومون بها يمكن الاستغناء عنها ؟ . إنه على مثل هذه الأسئلة ينبغى أن يتركز الكفاح الممتد ضد التقاليد الاستعمارية التى تعشش بيننا ، وهو كفاح يتطلب التذرع بالصبر فى حالة التذمر من قبل المعلمين ، وبالحكمة السياسية من قبل قياداتهم. وفرض عين علينا أن نكافح دفاعاً عن قيمة مهماتنا، بحيث تصبح تدريجيا وبأسرع وقت ممكن ، جزءاً عاماً وواضحاً من المكونات الرئيسة فى ثقافة المجتمع .

وكلما طال سكوتنا عن حالة كوننا أمهات مدللاَت ، سوف يجد المجتمع نفسه فى حالة استغراب حين نعلن الإضراب ، داعياً لنا بأَن نلتزم بالسلوك الحميد . وعكس ذلك يتجلى فى أنه كلما أسرع المجتمع فى الاعتراف بقيمة مهنتنا ، فسوف يتزايد دعمه لنا . إنه من الأمور الملحة أن نسعى إلى حشد مزيد من الدعم فى بلادنا للمدارس الحكومية الشعبية لكى تتميز بالكفاءة والديمقراطية والأجواء السعيدة ، وبتوافر مدرسين يتقاضون أجوراً طيبة ، ومدربين تدريباً جيداً وفى نمو مهنى متواصل . ليس من المستساغ أبداً ، بل وإلى غير رجعة ، أن تظل رواتب المعلمين أدنى بدرجات فلكية من رؤساء ومديرى الشركات الحكومية ، كما هو الحال الآن .

وعلينا أن نجعل هذه المطلب قضية قومية وجوهرية لوجود البرازيل التاريخى فى عالم القرن الحادى والعشرين ، وأن نزعزع إحساس اللامبالاة والضمائر المهذبة لأولياء البيروقراطية المنغمسين من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم فى أفكار استعمارية ، مهما ادعوا بأنهم من أنصار التحديث والتجديد .

ثم أنه ليس من المقبول ، ونحن فى مطالع القرن الجديد ، أن نـــستمر فى معانـــاة القصور الرهيب فيما يشهده تعليمنا الحالى ، كما وكيفاً . كذلك لا نستطيع أن ندخل هذا القرن ولدينا ثمانون مليوناً من تلاميذ المناطق المهمشة محـــرمين مـــن الالتحـــاق بالمدرسة، إلى جانب ملايين غيرهم قد طردتهم مدارسهم وأطلقـــت علـــيهم صـــفة "المتسربين" .

ولعلنا لا نتعجب أن نسمع على سبيل المثال أنه حتى بدء الاستقلال لم يكن لدينا فى البرازيل نظام تعليمى . و لم يقتصر الحرمان على هذا فحسب ، بل إن أية مظـــاهر ثقافية للمطالبة به كانت من المحرمات. وحتى اعتلاء الأسرة الملكية سدة الحكم ، كان إقامة مطبعة للنشر عملاً غير قانونى ، يعرض صاحبه لأقصى العقوبات .

وعند إعلان الاستقلال ، وجدت الأمة حديثة الولادة نفسها غارقة فى أعمق بحـــار الجهالة ، و لم يكن التعليم الحكومى العام إذ ذاك يعنى أكثر من وجـــود مـــدارس قليلـــة متناثرة فى المحافظات . وكان التعليم الثانوى منحصراً فيما عرف بالمدارس الملكية ، الـــتى كانت تعلم برامج عقيمة ممثلة فى خليط من دراسة اللغة الإغريقية واللاتينية ، والخطابـــة والفلسفة العقلية والأخلاقية وغيرها من المناهج الأكاديمية القديمة ، كذلك كانت الكتب قليلة . وقد أدى هذا إلى أن أكثر الفئات المؤهلة علميًّا لم تتكون لديها عادات القراءة .

ويلزمنا كذلك أن نتابع وأن نرصد إنجازات أولئك الذين نعطيهم أصواتنا ، سواء على المستوى المحلى أو القومى أو الفيدرالى ، وسواء كان ذلك لمناصب العمدة (مايور) أو عضوية المجالس النيابية أو المحافظ أو رئيس الدولة . واجبنا أن نراقـــب خطـــواتهم وتحركاتهم وقراراتهم ، وبياناتهم ، وإعطاء أصواتهم ، والمشكلات المتروكة ، فضلاً عن سلوكهم الأخلاقى . وعلينا كذلك أن نلزمهم بوعودهم ، وأن نقوم بتقييم ســـيرتهم تقييماً دقيقاً قبل الوثوق من انتخابهم مرة أخرى . وإذا اقتضى الأمر علينا أن نـــسحب ثقتنا من إعطاء أصواتنا لهم ، وواجبنا أن نبلغهم بالأسباب الموجبة لذلك . وفى جميـــع

الأحوال .. فإنه من المهم حين نلجأ إلى ذلك ، أن نحرص قدر المستطاع على توضيح مواقفنا بصورة علنية أمام الرأى العام .

والحاصل أننا بلد هدر للموارد ، وهو هدر نحاط به علماً فى كل يوم من خلال الصحافة والتلفاز ، ولو لم نكن على هذا النحو ربما كان فى مقدورنا أنه نقدم كثيرًا لتحسين التعليم . ويتجلى هدرنا فى ضعف تدويرنا للمخلفات ، وبإظهارنا عدم الاحترام والازدراء للملكية العامة . ونهدر حين نترك ما قيمته ملايين الدولارات من المعدات والأجهزة معرضة دون استخدام ، وحين نشرع فى بناء للمنشئات والمستشفيات ودور الحضانات دون استكمال مرافقها ، وفى تشييد الجسور والمعابر والعمارات الضخمة ، ليتوقف العمل فيها فجأة فتبدو لنا كأنها مواقع أركيولوجية لحضارات قديمة مطوره . كذلك يتم إهدار ما قيمته ملايين الدولارات من الفواكه والخضراوات فى مراكز التوزيع الكبرى . ولعله مما يستحق المحاولة أن نقوم بحساب تكلفة هذا الهدر ؛ لكى يتضح أمامنا ما كان يمكن أن نوفره من الموارد من أجل التعليم، إذ لم يحدث ذلك فعلاً حتى الآن .

ونحن نعتقد أن القرارات القطعية المتعسفة ، وما يتسم به الإداريون من ادعاء وصلف يتمسكون به منذ ماضينا الاستعمارى ، تبرز من بين الأسباب التى يمكن بها تفسير مشاعر العجز والقدرية التى تتملك كثيرين منا . ومثل هذا التعسف والصلف قد يؤدى حقيقة إلى إضعاف روح العمل لدى المعلمين الذين يسلمون أنفسهم إلى القيام بدوراً الأمومة المدللة ، بدلاً من أن يعتزوا بذواتهم كأصحاب مهنة . وقد يفسر ذلك أيضاً موقف أولئك الطلاب الذين يلتحقون ببرامج إعداد المعلم ، كمرحلة انتظار ، ريثما يحين موعد زواجهم .

إن كل السعى الناجع إزاء هذا الحال ، إنما يتجسد فى الكفاح السياسى المنظم ، والتغلب على الآراء السائدة بين النقابات ، والانتصار على المواقف الفئوية ، وممارسة

الضغط بالتعاون مع الأحزاب التقدمية ، والابتعاد عن تلك الأحزاب اليسارية ذات التوجهات التقليدية ، وإنما بالتضامن مع تلك التى لديها برامج ذات صبغة تتسم بما وراء الحداثة والديمقراطية .

إن كل تلك الجهود ضرورية حتى لا نسمح لأنفسنا بالسقوط فى هوة القدرية ، التى سوف تعمق من أبعاد المشكلات ، أكثر مما تؤدى إليه من مجرد خلق الصعوبات فى سبيل الوصول إلى الحلول الممكنة لها .

ومن البين أن المشكلات المرتبطة بقضايا التعليم ليست بالضرورة مشكلات تربوية فنية ، فقد تكون مشكلات ذات أبعاد سياسية أو أخلاقية أو مالية . ومن أمثلة ذلك أن ما تم الكشف عنه من فضائح فى نظام التأمنيات الاجتماعية – كما أوردها أحد المعلمين الجادين فى برنامجه التلفزيونى – قد أدى إلى ضياع أموال تكفى لبناء ما يقرب من (٦٠٠) ألف من المنازل لذوى الدخل المحدود فى طول البلاد وعرضها .

ومن المألوف أنه عندما تكون الأموال كافية فى أحد القطاعات ولا تكون متوافرة فى قطاع آخر .. فإن تلك الحالة إنما تعزى إلى سياسة الإنفاق فى المقام الأول . وعلى سبل المثال ، قد يقال إنه لا توجد موارد كافية لتجعل الحياة فى المناطق العشوائية أقل بؤسا ، بينما فى الوقت ذاته لا تُفتقر الأموال لبناء نفق مهيب . يصل ما بين منطقة من الأحياء الغنية بمنطقة أخرى . وهذه الحالة لا تمثل مشكلة تكنولوجية ، لكنها تقع فى دائرة الخيارات السياسية . ولقد شهدت حياتناً مثل هذه المشكلات طوال تاريخنا ؛ ففى عام ١٨٥٢ عندما تولى (المستشار زكارباس قاسكوسيلوس) رئاسة مقاطعة (بارانا) لأول مرة ، وصف أوضاع ما يتقاضاه المدرس بأنها مهزلة عبثية ، فى سياق احتجاجه على ضعف رواتب معلمى المرحلة الابتدائية . وحسبما أورده (ب . أى بيرلنك) فى كتابه (العوامل المعيقة فى تطوير التعليم البرازيلي) : " لقد كان من بين النتائج الرئيسية لضعف المرتبات أن أصبحت مهنة التعليم لا تغرى أحدًا . ولقد ظل

عديد من حكام المقاطعة يرددون عبارة ، مفادها أن الذين يلتحقون بالتعليم هم أولئك الذين ليس لديهم أى قدرة على عمل آخر . ومن الأمور الملحة أن يكـون لـسكان البرازيل تقدير أفضل لمهنة التعليم. وليس هناك من وسيلة قليلة الجدوى لعـدم تحقيـق ذلك أسوأ من بقاء أحوال المرتبات الهزيلة التى يتقاضاها المعلمون حالياً " .

وإنى لأعتقد أن على نقابة المعلمين أن تضيف بنداً جديداً ، وعلى مـدى زمـنى طويل ، فى أجندة مساعيها يتعلق بزيادة رواتب المعلمين وتحسين ظروف عملـهم فى التدريس . وهذا يتطلب فحصاً دقيقاً لسياسات الإنفاق العـام متـضمناً تـشخيص التفاوت بين مرتبات معلمى المرحلة الابتدائية ومرتبات المهن الأخرى ، وما يمكن أنـه يحصل عليه المعلم من علاوات ، تضم إلى مرتبه خلال كل فترة من فتـرات عملـه . ويصبح من الضرورى القيام بدراسة جادة لسياسات المرتبـات تكـون ذات طـابع ديمقراطى حقيقى ، دون أن تشوبها الملامح الاستعمارية . ومثل هذه الدراسة سـوف تهدف إلى تحقيق مبدأ العدالة بالنسبة لمهنته التدريس من ناحية ، كما أنها سوف تحـل كثيراً من المشكلات المقلقة فى عدم المساواة بصورة عامة .

لقد حدث عندما زرت مدينة (رسفي) عام ١٩٥٠ أن سمعـت (الأب ليـبرت) مؤسس الحركة الاقتصادية والإنسانية ، يردد مقولة أنه من بين جميع الأمور المقلقة التى شاهدها بيننا وكانت أشدهما إزعاجًا ، تلك الفجوة فى المرتبات بين أهـل الحظـوة والضعفاء ، وما نزال الفجوة قائمة حتى اليوم . ولعله من العسير تفسير ذلك الفـرق الشاسع والنسبة المختلة بين ما يتقاضاه رئيس مجلس إدارة شركة حكومية – بـصرف النظر عن أهمية عمله – وما يتقاضاه المعلم الابتدائى فى مقابل عملـه . ويـدعونا إلى الأسى حين ندرك أن هذا الذى يحتل موقع رئيس مجلس الإدارة حالياً ، كان بـالأمس فى حاجة إلى هذا المعلم الابتدائى . إنه لا من أن مناص تعامل مهنة التدريس فى البرازيل

بما تستحق من التكريم ؛ حتى يمكن للمجتمع أن يبدأ فى مطالبتها بالأداء الكـــفء فى مهماتها .

ومبلغ القول أننا قد نكون سذجاً إذا استبعدنا الحاجة إلى كفاح سياسى ، وإلى الحاجة إلى أن نوضح للرأى العام الظروف الحقيقية التى تعيشها مهنة التعليم ، مما يستوجب مقارنة مرتبات مختلف المهن وبيان التفاوت فيما بينها . إنا لندرك تماماً لمدركين أن التعليم هو الرافعة العظمى فى عملية التحول الاجتماعى ، كما تدرك أنه دونه لن يحدث تحول .

لن تستطيع أمة أن تؤكد ذاتها من خلال أشواقها الحارة نحـــو المعرفـــة ، دون أن تغامر بمشاعرها من أجل التجديد المتواصل لذاتها ، ودون أن تحتمل المخاطر الخلاقـــة المحتملة . ولن يستطيع مجتمع أن يؤكد ذاته دون تنمية ثقافية وعلمه وقدراته البحثيـــة والتكنولوجية ، وأخيراً نظام تعليمه .. وكل هذا يبدأ من المدرسة الابتدائية .

obeikandl.com